المنهج السوسيولوجي

ذ. محمد الويز
شعبة علم الاجتماع كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض
مراكش، المغرب

1. مقدمـــة

تهدف هذه المقالة إلى إبراز مجموعة من الخطوات الأساسية في المنهج السوسيولوجي ولا سيما تلك، التي يحتاج إليها المشتغلين المبتدئين في حقل البحث العلمي.

إن الذي حدا بنا؛ إلى التفكير الجدي في الخوض في هذا الموضوع؛ هو التفكير في الصعوبات، التي يتلقاها الباحث المبتدئ في السوسيولوجيا، سواء؛ أثناء التفكير أوالشروع في بناء موضوع البحث، حيث تنتصب أمامه جدران من العوائق أهمها:

كيف يمكن أن يختار موضوع أو عنوان بحثه؟ ما هو المجال، الذي يمكن أن يشتغل عليه؟ ما هي الخطوات التي ينبغي إتباعها؟ ما هي التقنية المنهجية التي يجب اعتمادها لبناء موضوع سوسيولوجي، يتوفر فيه الحد الأدنى من الشروط العلمية الخ من التساؤلات.

حقيقة؛ أن كل مشرف على بحث جامعي الآن، يجد مشاكل كبرى في تأطير بحث يجهل صاحبه أو لا امتلاك التقنيات الميتودولوجية للقيام بعمله.

عموما "يمكننا أن نميز قي أي بحث علمي أو فلسفي بين المنهج والموضوع والهدف. نعني بالمنهج هنا؛ السبيل الذي يمكن أن يتطرق منه الباحث، إلى الغرض الذي تهدف إليه تلك الدراسة أو ذلك البحث .من هنا كانت أولى مشكلات المنهج تحديد هذا الهدف بادئ ذي بدء. فما هو الغرض الذي تهدف إليه العلوم بأنواعها : الاجتماعية والإنسانية والطبيعية والتاريخية؟ إذ من شأن الإجابة على هذا السؤال أن تعيننا على فهم ماهية المنهج ومقوماته من جهة، وصلته بالموضوع من جهة ثانية، كما تعيننا على فهم وجوه التباين بين شتى العلوم والمنهج، أو المناهج الصالحة لكل منها"(1).

---

(1) **د. ماجد فخري، إشكالية المنهج** : منهج واحد أم مناهج متعددة؟ ، مجلة الفكر العربي، العدد 42، يونيو 1987، ص : 10.

وكما يحدد ديكارت في مقالته الشهيرة في المنهج[2](1637) وفي القواعد لتوجيه الذهن (1629) غرض المنهج بأنه الوصول على سبيل الاستدلال أو الحدس إلى اليقين أو البداهة أما القواعد التي يستند إليها المنهج فكثيرة يمكن ردها إلى الأربع الكبرى التي ورد ذكرها في مقالة في المنهج:

1. أولا، يجب أن لا نقبل شيئا على انه صادق ما لم يتبين لنا بداهة أنه صادق، وهي قاعدة الوضوح والتميز الشهيرة التي يمكن اعتبارها منطلق منهج ديكارت الرياضي أو الهندسي بصورة عامة.
2. ثانيا، يجب قسمة كل مشكلة نعالجها إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء ليتسنى لنا إدراكها بأقصى وضوح ممكن، وهي قاعدة تحليل المركبات إلى أجزائها البسيطة.
3. ثالثا، علينا بعد إنعام النظر في بسائط المشكلة إعادة تركيبها بصورة نظامية، بحيث نتوصل إلى معارف جديدة اشد تعقيدا من تلك البسائط .وهي قاعدة التركيب المقابلة للقاعدة السالفة.
4. رابعا، علينا المراجعة والإحصاء المتواصلين للخطوات التي نسلكها إبان كلا التحليل والتركيب، بحيث نتحاشى الوقوع في الخطأ أو السهو، ويمكن دعوة هذه القاعدة قاعدة المراجعة أو الاستقصاء.

2. إشكالية الموضوع

تتمثل اشكالة الموضوع المدروس في التساؤل التالي :ما الذي يجعل عدد من البحوث في مجال العلوم الاجتماعية تتميز بالعمومية وبعدم الانطلاق من سؤال إجرائي واضح؟.

ومن ثمة يكون العائق الأساسي الذي يعترض الباحث أثناء اختيار موضوع البحث وتفكيكه إلى أجزائه البسيطة لتسهيل مأمورية البحث هو كيفية صياغة الموضوع، إذ كثيرا ما يختار الباحث ما يمكن أن نسميه تجاوزا "بالموضوع الباخرة "من قبيل :مشاركة المرأة في العمل السياسي، موضوع كبير يصعب الإحاطة به لا مكانيا ولا زمانيا، فأي امرأة يقصدها البحث :هل المرأة المتعلمة أم المرأة الغير متعلمة أم هما معا؟ وهل يمكن الاتصال بكل نساء المغرب؟ وهل يتعلق الأمر بالمرأة القروية أم الحضرية الخ ... من

(2) المقالة في الطريقة، ترجمة جميل صليبا، الطبعة الثنية، بيروت 1970، نقلا عن المرجع السابق ص : 11.

التحديدات الأساسية، ولا يشعر الباحث بصعوبة الأمر إلا لما يجد نفسه غارقا في موضوع مترامي الأطراف يصعب الانتهاء منه في مدة وجيزة كما يتعذر الإحاطة به لأنه يحتاج إلى ميزانية كبيرة تتلاءم ومجال البحث المتسع.

ومن ثمة رأينا أنه من الضروري تقديم مجموعة من الخطوات المنهجية الأساسية التي يمكن الرجوع إليها، وهي مختصرة، أثناء الرغبة في القيام ببحث سوسيولوجي.

لذلك، فان الاهتمام بموضوع علم الاجتماع لا يقتصر فقط على ما هو موضوعاتي بل على الجانب المنهجي أيضا، الذي يشكل نصف البحث فكلما كان الباحث محيطا وملما بالأسس المنهجية والبراديكمات، كلما استطاع تناول الظواهر الاجتماعية تناولا ملائما ويكون بإمكانه الوصول إلى الأهداف المحددة "المنهج هو مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم من العلوم بلوغ الحقائق المتوخاة مع إمكانية تبيانها والتأكد من صحتها[3]".

يتضح مما سبق أن المنهج أسلوب منطقي يلازم كل عملية تحليلية تتخذ الطابع العلمي، إلا أن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا الإطار، هو أي منهج لأي موضوع؟ هل هنالك منهج واحد أم مناهج متعددة؟ ما دام أن الظواهر الاجتماعية تتسم بالتعدد والتنوع والغنى، إذن لا مناص من مناهج متعددة، يقول مثل اسباني: ليس هنالك طريق، الطريق هي التي نشقها عندما نكون نمشي "إذن ألا يمكن القول على غرار ذلك : ليس هنالك منهج، المنهج هو الذي نحدده عندما نكون بصدد دراسة موضوع معين، بمعنى أن طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعية المنهج ، "ليس ثمة منهج علمي، إذ لا يوجد إجراء وحيد، أو مجموعة من القواعد تشكل أساسا لكل نموذج بحث، وضمانا لان يكون علميا، ومن ثم لأن يكون جديرا بالثقة. فكل مشروع وكل نظرية، وكل إجراء إنما يخضع في الحكم عليه على أهليته الخاصة، وعن طريق معايير لا بد أن تكون متكيفة مع العمليات التي يبحث فيها. إذ إن فكرة منهج كلي راسخ، والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية وراسخة، إنما هي فكرة غير واقعية مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تقول بأداة قياس كلية وراسخة تقيس أي كتلة، دونما اعتبار للظروف المحيطة بهاص[4]"وينتهي إلى القول" :نحن الآن مضطرون إلى ممارسة العلم بدون أن تكون لدينا قدرة على الركون إلى أي" منهج علمي "محدد تماما، وراسخ تمام الرسوخ[5]".

---

(3) MADELEINE Grawitz, Méthode des Sciences sociales ; P . Dalloz , 1984.

(4) Fereabend Paul, science in a free society . thetford Press, Ltd, great Britain (1965), P.66.

(5). Ibid.P.67.

واضح من أفكار" بول فيراباند"، أن الأمر يتعلق بمشروع فوضوي كما يظهر ذلك من خلال كتابه"ضد المنهج "وهو بذلك يقوم بنوع من المواجهة أو التضاد مع العلم حيث يرى بان" حكم العالم على المجتمع يقبل بوجه عام وبنفس الذي كان يقبل به حكم الأساقفة والكرادلة من زمن ليس ببعيد جدا ... ولسوف ترى أن العلم قد أصبح الآن جائرا مثله في ذلك مثل الايديولوجيات تماما، وحق علينا الآن أن نناصبه العداء(6)".

من ثمة، يخالف فيراباند النزعة الاستقرائية عند نيوتن والوضعيين والنزعة التكذيبية عند كارل بوبر ومنهجية برامج البحث العلمي عند امري لاكاتوس، منطلقا من فكرة أساسية مفادها أن لا وجود لمنهج مميز للبحث العلمي، بمعني أدق ليس هنالك وصفة جاهزة للاستعمال داخل العلوم الاجتماعية والإنسانية يمكن الانطلاق منها للحصول على نتائج معينة أثناء بناء المعرفة العلمية، بل المنهج مرتبط أساسا بالموضوع المدروس وبذكاء وبداهة وابتكار الباحث وتمرسه الميداني كما يمكن القول بأن المنهج هو طريقة في التعامل العقلي une démarche de l’esprit تبني على الإرث النظري والميتودولوجي، "في العمق يطرح مشكل المعرفة العلمية بنفس الطريقة بالنسبة للظواهر الاجتماعية والظواهر الطبيعية، في الحالتين معا نضع فرضيات نظرية في مواجهة معطيات الملاحظة أو التجربة، على كل بحث إذن أن يستجيب لبعض المبادئ القارة والموحدة رغم أن هنالك طرقا متعددة تقود إلى المعرفة العلمية"(7).

3. بناء المعرفة العلمية

تجدر الإشارة إلى أن المعرفة العلمية تبنى انطلاقا من تفاعل النظرية والتجربة انطلاقا من بنينة منطقية للموضوع عبر مراحل أساسية تمدنا بها ابيستيمولوجيا العلم وهي:

القطيعة، البناء، التجريب.

1.3. القطيعة

تعتبر أول فعل بنائي للعمل العلمي، وتتمظهر من خلال القطع مع الأفكار الشائعة والأولية والمكتسبة خارج نطاق المعرفة العلمية "يفرض الحذر الابيستمولوجي نفسه

---

(6) Oldroyd David, The arch of knowledge an introductory study of the history of the philosophy and methodology of Science . Methuen, New York, London. 1986. P.334.

(7) R. Quivy et L .V. Campenhoudt ; Manuel de recherche en sciences sociales. Ed. Dunod, 1988 , P. 68.

بشكل خاص في حالة العلوم الإنسانية حيث الفصل بين الرأي الشائع والخطاب العلمي اقل وضوحا مما هو عليه في مجالات أخرى[8] "حيث داخل هذه العلوم تكون" سيطرة المفاهيم العامة من القوة بحيث يكون واجبا استعمال كل التقنيات الموضوعية techniques d'objectivations حتى تتحقق بالفعل القطيعة التي نجدها معلنة أكثر مما نجدها متحققة[9] "يبدو واضحا مما سبق أن المعرفة العلمية ليست استمرارا للمعرفة الشائعة وإنما هي تحقق علميتها انطلاقا من القطع معها وتجاوزها " يجب إبعاد بشكل منهجي، كل الأفكار المسبقة...يجب إذن على السوسيولوجي ... أن يمتنع عن استعمال هذه المفاهيم التي تشكلت خارج العلم ولأغراض لا علاقة لها بالعلمية......الخطوة الأولى بالنسبة للسوسيولوجي تتمثل في تحديد الأشياء التي يدرسها[10]"... وبالفعل فالسوسيولوجي فرد من أفراد المجتمع فهو نتيجة تشكلات اجتماعية مختلفة يفعل فيها ما هو لغوي، ثقافي، اجتماعي، اقتصادي وسياسي وهذه المتغيرات قد تعوق العلمية داخل البحث الاجتماعي والدليل على ذلك عناوين البحوث التي نجدها في جامعاتنا من قبيل : آفة الانتحار-آفة الهجرة السرية - الخ من العناوين التي تتحكم فيها الانتماءات الايديولوجية والدينية والأفكار الجاهزة والمسبقة لواضعيها دون الوعي بأن هذا النوع من المواضيع المطروحة بهذا الشكل محكوم عليها بالعقم لأنها لا تفتح مجالا للبحث والتحليل إنما تضع حدا لذلك منذ البداية.

لذلك تكون هذه الخطوة الأولى المتمثلة في انجاز مجموعة من القطائع الابستيمولوجية مع عدد من الأفكار والتصورات النفعية التي تنفذ إلى الفرد عبر قنوات متعددة أهمها اللغة، التي يصعب داخلها التمييز بين ما ينتمي إلى العلم وما لا ينتمي إليه، الدين، الثقافة الخ ...أساسية في تجاوز الثقافة الغير العالمة (بكسر اللام) لبناء الموضوع العلمي تلي هذه المرحلة، مرحلة لا تقل أهمية وهي مرحلة البناء.

2.3. البنــاء

بمعنى بناء الموضوع العلمي وذلك بنقله من مرحلة الموضوع المعطى كما هو اجتماعيا : الانتحار، الصراع، التفاوت الطبقي، النظم التربوية الخ... كلها مواضيع اجتماعية غير سوسيولوجية وتصبح كذلك عندما ننقلها إلى المواضيع "المبناة "بمعنى القيام "ببنينتها "

---

(8) Pierre Bourdieu, J.C. Chamboredon, J.C. Passeron, **le Métier de sociologue**, Lahay, Mouton, 1968. P.27

(9) 9 Pierre Bourdieu , Op.Cit, P.28.

(10) Emile Durkheim, les règles de la méthode sociologique, P . PUF, 1983.P : 30.

وإخضاعها لشروط المعرفة العلمية وفي هذه العملية نوع من القطيعة الابستمولوجية مع الموضوع المعطى كما هو في الواقع الاجتماعي وهذه العملية لا تستقيم إلا بتحويل الموضوع إلى جملة من التساؤلات: كيف ولماذا، أو ما نسميه بالفرنسية (le pourquoi et le comment) نقطة انطلاق أي بحث كميا كان أو كيفيا هو في الغالب سؤال من نوع لماذا؟[11] وبعودتنا إلى كل المؤسسين والمشتغلين في حقل السوسيولوجيا نجدهم ينطلقون ويبنون مواضيع بحوثهم عبر طرح مجموعة من التساؤلات الموجهة، فدوركهايم kmile Durkheim في دراسته للانتحار يطرح سؤالا جوهريا : لماذا يختلف الانتحار حسب الأمكنة والأزمنة؟ نفس الشيء بالنسبة لرايمون بودون R.Boudon. أثناء مقاربته لمسألة لا تكافؤ الفرص في التعليم، هل يتجه لا تكافؤ الفرص أمام التعليم إلى التراجع في المجتمعات الصناعية؟ وعلى نفس المنوال يطرح بيير بورديو P. Bourdieu ، في دراسته حول : حب الفن، ما الذي يجعل بعض الناس خلافا لأغلبيتهم يتوفرون على استعداد مسبق لزيارة المتاحف؟

وبذلك تكون عملية نقل الموضوع من موضوع معطى إلى موضوع مبنى ليست مسألة سهلة بل تحتاج إلى حذر الباحث وذكائه من أجل ترجمة ما يعتمل في مخيلته من هموم معرفية وغير معرفية ومن أجل الانتقال من التصورات العامة والفضفاضة والغامضة إلى موضوع محدد. هذه العملية تتطلب تمرسا كبيرا والماما بالحد الأدنى بالمعرفة السوسيولوجية من أجل القدرة على تحويل الموضوع إلى أسئلة واضحة محددة للموضوع المدروس وتجعله موضوعا واقعيا وقابلا للانجاز ومستجيبا لمبدأ المصداقية المعرفية بمعنى أن يكون الهدف من الموضوع هدفا معرفيا يتوخى الرغبة في الفهم والتفسير وليس إصدار الأحكام المعيارية والتقييم الأخلاقي الذي لا يمت للمعرفة العلمية بصلة، بعد هذه الخطوة الثانية تأتي الخطوة الثالثة وهي مرحلة التجريب.

3.3. مرحلة التجريب

يقصد به النزول إلى الميدان من أجل اختبار النظم النظرية والميتودولوجية التي انطلق منها الباحث والفرضيات التي صاغها بهدف التأكد منها واقعيا، ويبدأ هذا العمل الميداني باستكشاف الميدان أو ما يسمى بالبحث المسبق الذي يساعد الباحث على صياغة فرضيات لها قيمتها وأدوات فاعلة من أجل الملاحظة، "يهدف البحث الأولي إلى التأكد من صواب الاختبارات المنهجية التي أقدم عليها الباحث، يعني البحث الأولي أن نجرب

(11) . R. Boudon ; Les Méthodes en sociologie, P. PUF 1969. P.31.

الأدوات المعدة لانجاز البحث الميداني (استمارة، تحليل الوثائق،.. حتى إذا كان لدينا شك حول هذا المتغير أو ذاك، حول مرد ودية هذه التقنية أو تلك كان بإمكاننا أن نستكشف المشكل المراد دراسته بطريقة محدودة قبل التحديد النهائي لأهداف الدراسة (12)"

لهذه المرحلة وظائف متعددة أولا يكون الباحث قد تمكن نوعا ما من تحقيق القطيعة الابستيمولوجية مع مجموعة من الأفكار المسبقة، ثانيا يكون قد بدأ في التعاطي مع موضوعه كسوسيولوجي يريد أن يستكشف الميدان ويفككه برغبة الفهم والتحليل ، ثالثا يكون قد جمع المعطيات الضرورية لطرح إشكالية بحثه انطلاقا من الاستجوابات الاستكشافية ومن مختلف القراءات النظرية التي راكمها، "يجب أن تساعد القراءات والاستجوابات الاستكشافية على تكوين إشكالية البحث، القراءة تساعد على الاطلاع على المعارف المتعلقة بالمشكل المدروس، والاستجوابات تساهم في اكتشاف الجوانب التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار، وتوسع أو تعيد رسم حدود الحقل الذي ينبغي أن تغطيه القراءات.... وظيفة الاستجوابات الاستكشافية إذن هي أن تسلط الضوء على جواب الظاهرة المدروسة التي لم يفكر فيها الباحث من تلقاء نفسه مكملة بذلك السبل والآفاق التي تكون قد فتحتها القراءات. لهذا السبب يكون من الأساسي أن تنجز الاستجوابات بطريقة مفتوحة وشديدة الليونة وأن يحجم عن طرح عدد كبير من الأسئلة وعن طرح أسئلة غير دقيقة.(13)"

4 . الشروط العلمية لإشكالية البحث السوسيولوجي

لا بد من الإشارة هنا إلى أهمية الحديث عن طرح إشكالية البحث التي في تقديرنا تشكل إحدى المهام الصعبة بالنسبة للباحث المبتدئ، إذ تعتبر شرطا أساسيا لإجراء أي بحث سوسيولوجي .وطرح إشكالية البحث في حاجة إلى كثير من الدقة والوضوح، إذ ليس الهدف من البحث أن يتضمن عنوانا مثيرا وبراقا بل الهدف منه هو إضافة قيمة مضافة معينة داخل البحث العلمي، وتحديد الإشكالية يستلزم من الباحث طرح سؤالين أساسين : لماذا؟ وكيف؟ بمعنى لماذا بالضبط اختيار هذه الإشكالية أو المشكلة وما السبيل لانجازها، أقصد بأن الباحث يكون حاملا لهموم معينة ومنشغلا بقضايا اجتماعية تهم المنطقة التي ينتمي إليها أو تهم المجتمع ككل، يعيش مخاضا معينا ومقلقا وينتظر الفرصة للإفصاح عن هذه الأمور وترجمتها إلى واقع عبر إجراء بحثه الذي يتوخى من

(12) Madeleine Grawitz, op,cit, . P. 575.

(13) R. Quivy et L .V. Campenhoudt, Op, Cit, P.P : 60 , 61.

خلاله زعزعة مجموعة من الثوابت وتحريك جملة من السواكن الاجتماعية من أجل بناء الحقيقة.

والسؤال الثاني يترجم من خلاله الباحث المنهج الذي سيتبعه لدراسة المشكلة (كيف أقارب الموضوع، بمعنى ما هي التقنيات الميتودولوجية التي سأستعملها).

وقبل الخوض في التقنيات المنهجية لا بد من القول إن أي مشكلة معينة قابلة للدراسة والتحليل إلا وترتبط بمسألتين أساسيتين : أولاهما : أبعاد المشكلة وثانيهما أهداف المشكلة، بمعنى أن كما للمشكلة أهدافا تتوخى تحقيقها والوصول إليها انطلاقا من البحث المرغوب إجراؤه ويمكن لأهداف البحث الواحد أن تتجاوز الهدف الواحد إلى أهداف متعددة تهم ميادين ومجالات مختلفة : اجتماعية، ثقافية، تربوية، ميدانية، نظرية الخ....

فان المشكلة أيضا ترتبط وتتحكم فيها أبعاد متنوعة بمعنى أن كل بعد له دوره في التأثير على المشكلة ويغير من طبيعتها وأهدافها.

وإجراء بحث دقيق يستوجب تحديد أبعاد Dimensions المشكلة تحديدا دقيقا ليتمكن من الإحاطة بكل المجالات التي قد يكون لها ارتباط معين بالمشكلة وكذا جل العوامل التي يمكن أن تؤثر فيها، ولابد من الاعتراف أن كل مشكلة لها خصوصيتها وطبيعتها التي تجعلها ترتبط بعوامل ومجالات خاصة إلا أنه ومن باب التجربة يمكن القول بأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية تشكل أهم الأبعاد التي ترتبط بالظاهرة الاجتماعية والإنسانية وهي عوامل متداخلة يصعب الفصل داخلها بين ما هو اقتصادي وما هو سياسي وبين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي الخ....

5. المنهج في العلوم الاجتماعية

أرجع إلى القول بأن الحديث عن المنهج داخل العلوم الاجتماعية يتأرجح بين منهجين أساسين : المنهج الكمي والمنهج الكيفي ولكل منهج طرقه واستخداماته التي تميزه عن الآخر ولكل واحد مجال هو مخصص له ، "فالمنهج الكمي يستخدم عادة لحصر وربط الظواهر الاجتماعية والنفسية، ويعني المنهج الكمي للكثيرين استخدام تقنية العينة العشوائية والمنهج التجريبي وشبه التجريبي والمقاييس الموضوعية والتحليلات الإحصائية المعقدة ومنهج المسح الاجتماعي والمنهج الكمي له نظرة وضعية وذو خاصية جزئية وقائم على الاستنباط وموضوعي وموجه نحو النتائج وذو نظرة محايدة للعالم.... فالتجريب والعلاقات الارتباطية التي يكثر استخدامها في هذا المنهج مصممة بهدف

التحقق من العلاقات بين المتغيرات وأدوات جمع البيانات في المنهج الكمي مصممة لتقدم حقائق موضوعية، ثابتة، رقمية وقابلة للملاحظة والقياس حول جزئيات أومتغيرات معرفة تعريفا إجرائيا. ومن هذه الأدوات الملاحظة المقننة وتصاميم البحث التجريبية والاستمارة والمقاييس المقننة [14]"

فالمنهج الكمي إذن، يمكن من التعبير عن جوانب الظاهرة الاجتماعية كميا أو رقميا ويمكن أن نشير هنا إلى المنهج الإحصائي والدور الذي يقوم به في تكميم الظاهرة الاجتماعية، فإذا كنا مثلا نريد أن ندرس ظاهرة اجتماعية كالبطالة، فإننا نلجأ إلى إحصاء عدد العاطلين في منطقة ما ونحدد جنسهم وأعمارهم ومستواهم الدراسي، ولا تقف الطريقة الإحصائية عند هذا الحد، بل قد تساعدنا في تحديد العوامل الحاسمة التي تؤدي إلى حدوث ظاهرة اجتماعية أو تغير في مجراها، فإذا كنا ندرس ظاهرة الانحراف : نأخذ عينة من المنحرفين ثم نصنفهم إلى فئات حسب أعمارهم وموطنهم الأصلي : مدينة – قرية، الوضع العائلي, الأيتام .... وحسب الأحياء التي يسكتونها عصرية أو تقليدية، والفئة التي ينتمون إليها والفئة التي تحتل أكثر نسبة داخل هذه العينة تكون هي العامل الأكثر ترجيحا في انتشار الانحرافات التي تبدو لدى الشباب.

وفي المقابل فان المنهج الكيفي : "يستخدم عادة لمعرفة الخصائص الأساسية والضرورية للظواهر الاجتماعية.. ويرتبط المنهج الكيفي باستخدام المنهج الاثنوغرافي ومنهج دراسة الحالة والمقابلات العميقة والملاحظة بالمشاركة. والمنهج الكيفي قائم على الاستقراء ويهتم بالظواهر بصفة أكثر ويعتبر أكثر شمولية وذو صبغة ذاتية وله نظرة انتروبولوجية حول العالم.

ويصور المنهج الكيفي العالم على انه شديد التعقيد والحقائق فيه دائمة التغير ومكونة من أبعاد متعددة من التصورات والمعاني، التي تتأثر بشدة بالتفاعل بين السياق البيئي والتفاعل الذاتي للأشخاص. ويهدف المنهج الكيفي إلى الكشف عن معاني العلاقات القائمة في إطار الظواهر الاجتماعية، وأثر هذه العلاقات على الأداء الاجتماعي [15]".

يبدو واضحا أن المنهج الكيفي أكثر التصاقا بحقيقة الظاهرة الإنسانية باعتباره يقاربها من الداخل وربما يتابع مختلف أشكال تطورها وصيروراتها المختلفة في الزمان والمكان على خلاف المنهج الكمي الذي ينبني على ما هو رقمي والرقم إذا كان صحيحا

(14) سامي عبد العزيز الدامغ. **التعدد المنهجي : أنواعه ومدى ملاءمته للعلوم الاجتماعية، مجلة العلوم الاجتماعية**، المجلد 24، عدد 4 السنة 1996، ص 111.

(15) **نفس المرجع السابق**، ص . ص. : 111، 112.

في حال فانه خادع في أغلب الأحوال، فمثلا يمكن أن نقرأ بأن المغرب يتوفر على أكثر من 30000 مستوصف مجهز بكل التجهيزات الطبية الضرورية، رقم قد يبدو مهما ولكن إذا نظرنا إلى ما وراء الرقم ونزلنا إلى مستوى التحليل فسنجد أن هذا العدد من المستوصفات تتمركز فقط في بعض المدن :كالرباط والدار البيضاء مثلا ، في حين عدد من المناطق والقرى لا تتوفر حتى على أبسط المستلزمات الصحية.

لا أريد هنا أن أثير نقاشا أو جدلا حول من الأهم :المنهج الكمي أو الكيفي، فكلاهما طريقة وأسلوب في الدراسة ويتلاءم مع موضوع معين، حسب خصوصيات معينة ومجال معين ولكل منهما ايجابيات وسلبيات، كما أنهما يمكن أن يستعملا في دراسة واحدة في إطار التعدد المنهجي.

كما أن علاقة التكامل بين المناهج والتقنيات تمليه وضعية هذه المناهج باعتبارها ما زالت تشكو من القدرة العلمية والنضج الكافي.

وفي نفس الاتجاه، فالحديث عن التعدد المنهجي يفرض إثارة التعدد على مستوى أدوات جمع البيانات : الاستمارة : الاستبيان البريدي،الإشراف الذاتي الخ ... المقابلة : الاستجوابات، (Interview, Entretien)..... وهذا التعدد يتمظهر من خلال مظاهر متعددة سواء على مستوى أدوات جمع البيانات أو الأداة نفسها إذ يمكن أن يتخذ أشكال متنوعة كان يتم استعمال الملاحظة والمقابلة في نفس الآن أو المقابلة والاستبيان البريدي "لذا فان استخدام أكثر من أداة من أدوات جمع البيانات في دراسة الظاهرة الاجتماعية كفيل بتلافي العيوب الموجودة في كل أداة لوحدها .فالمقابلة، كأداة لجمع البيانات، تسمح بالحصول على معلومات عميقة ودقيقة من المبحوثين.... ولا تحد المبحوثين بإجابات معينة. ولكن يعاب عليها انه ليس فيها حفظ لسرية ومجهولية المبحوثين، وأنها تتطلب الكثير من الجهد والوقت، وأنها مرتفعة التكاليف، كما يعاب عليها أنه من الممكن أن يكون فيها تحيز، وقد تجعل المبحوثين يتحرجون من الحديث عن بعض المواضيع الحساسة (16)"

وحقيقة أن للاستجوابات دورا كبيرا في تشخيص الواقع ومعرفة الحقائق، فنحن نعلم أن الفرد في المجتمع المغربي لم يبلغ بعد مبلغا كبيرا من الانفتاح ويشك في كل شيء ويؤمن بفكرة أساسية وهي : "لا أعرف"، " لم أسمع"، " لم أرى " وفي اعتقاده أن هذه "اللاءات" آو النفي هو مصدر ارتياحه عوض إقحامه في دوامة من "الشبهات" وهذا التوجس هو نتيجة وسط ومحيط اجتماعي معين يتربى فيه الفرد وسط دوامة من الترهيب والتخويف يصبح معها إنسانا" مقولبا "لا يمكن أن تميز لديه موقف" :لا "من

موقف "نعم" فهو يجيبك بنعم في حالة "لا" ويجيبك بلا في حالة "نعم" لأنه يخشى من البحث ومن الباحث لأن الباحث يقترن لديه برجل المباحث.

من ثمة، فان الوضعية الاجتماعية للمستجوب تلعب دورا كبيرا في مصداقية أو طبيعة الأجوبة، فالذي ينحدر من طبقة متوسطة ليس هو الذي ينتمي لطبقة دنيا، فهنالك من يعتبر الاستجواب معه حوارا، وهنالك من يعتبره بمثابة "استنطاق".

فالقيم والمعايير التي تتحكم في الوسط الاجتماعي للفرد تتحكم في إعطاء تأويلات مختلفة للاستجواب، فمجرد الحديث مع شخص آخر يجعل هذا الأخير يقارن هذه الوضعية أو الحالة مع حالات مماثلة تحصل في الواقع الاجتماعي : فنجده يحسب سائله: متطفلا، مفتش الضرائب، هيئة صحية، مخبر بوليسي، الخ.....

لكن تقنية المقابلة ومعايشة المستجوبين والجلوس معهم لمدة معينة قد تمكن الباحث من معرفة حقائقهم وخصائصهم وطبائعهم وقد يعبرون عن الحقيقة لما يستأنسون ويكسبون ثقة الباحث.

أما الاستمارة فصعب أن تعطينا حقيقة معينة عن الموضوع، الذي نريد تحليله وكشف خباياه، ولا سيما إذا عرفنا أن الإنسان المغربي يعيش، كما ذكرت آنفا، اللامبالاة إزاء المواضيع ويعبر عكس ما يشعر به لاعتبارات متعددة أشرت إلى بعض منها سابقا، وبذلك على الرغم من أن الاستمارة تحفظ سرية المبحوثين، كما أنها لا تكلف الباحث جهدا كبيرا لا على مستوى الوقت ولا على مستوى الجهد أو التكلفة، فإنها لا تمكن الباحث من الحصول وجمع معطيات حقيقية وعميقة عن الموضوع المدروس أكثر من ذلك فالاستمارة، بطبيعة أسئلتها المنغلقة، لا تعطي الفرصة للمبحوث للتعبير عن أرائه باطلاقية.

خاتمة

هكذا فإبراز غنى العمل المنهجي في ميدان السوسيولوجيا خاصة والعلوم الاجتماعية عامة يرتبط أوثق الارتباط بالالتزام بالروح العلمية والأسس المنهجية العامة: علاقة الملاحظ (بكسر الحاء) والملاحظ (بفتح الحاء)، القطيعة مع الثقافة المألوفة ومع الواقعية الساذجة، التخلي عن الأهواء الذاتية والتسرع في إصدار الأحكام، فحكم الباحث لا ينبغي أن يكون نتيجة اندفاع أو انفعال أو دوغمائية.

كما لا يمكن لأي منهج أن يزعم لنفسه السيادة، ولا شيء، وخصوصا في ميدان المجتمع حيث التعقد والتنوع، سيحول بين الباحث واستعمال التعددية المنهجية وأي

طريق يمكن أن يتيح له بلوغ غايته في الفهم والتفسير والقدرة على تشخيص وتحليل الظواهر.

وتقاس أهمية منهج معين انطلاقا من قدرته على التجاوب مع الموضوع ومن ثمة يمكن القول بأن شرط التعددية pluralisme المنهجية لا يعني استسلام السوسيولوجيا أوخضوعها لأمر الواقع بقدر ما هنالك هامش من الحرية تتاح فيه الفرصة أمام مختلف المبادراتinitiatives كي تتم البرهنة عن كفاءتها وقوتها عبر إنتاج مناهج مختلفة ومتميزة.